## أبطال للنهاية

لم يدم ليل العدوان طويلاً، وانهارت صلابة التحالف الثلاثى الغادر . . ولم تمضِ شهور قليلة حتى رحل المعتدون يحملون أوزارهم على ظهورهم يودعهم الخزىَ والعار . . وأفاقت مصر من هذا الكابوس المزعج لتعيد تنظيم أمورها وتثب وثبتها الهائلة إلى الأمام .

وراحت كثير من الأسر المصرية تبحث عن شهيد لها أو جريح أو مفقود . . فالمعركة مع العدو لم تكن سهلة ولا بد أن يكون لها ضحايا كثيرون .

وتبدلت أوضاع وتغيرت أماكن ورحلت أسر إلى مواقع جديدة؛ فطبيعة الحياة بعد العدوان تستدعى هذا التحول .

ولم تكن أسرة الصول عبد الخالق بعيدة عن هذا التحول . . فلم تعد الشقة المتواضعة الهادئة على ضفاف القناة، والتى حلّقت فيه أجمل الذكريات، هى نهاية المطاف والمقر الدائم لأفرادها .

فأحمد تم نقله للعمل فى إحدى القواعد العسكرية البحرية على شواطئ سيناء وهو سعيد بهذا النقل لأنه رقى إلى درجة أعلى فى سرعة لم تخطر على باله . . وسيتيح له العمل الجديد مزيداً من الخبرة واكتساب المعارف العسكرية التى يحتاجها . . وأحس بذكائه أن القصة مع إسرائيل لم تكتمل فصولها وأن لها مراحل قادمة أقسى وأعنف، ولهذا لا يجب أن تنام القوة العسكرية وتتراخى . . فإسرائيل ومن خلفها وأمامها المستعمرون لن يبتلعوا الهزيمة التى لحقتهم بل سيعيدون الكَرة لإثبات وجودهم فى يوم قريب أو بعيد، وهو يوم آتٍ ولا شك فى ذلك .

ولم يستطع أحمد أن يأخذ أمه معه؛ فطبيعة المكان لا تتيح له اصطحابها، كذلك أرجأ التفكير فى زواجه إلى أن تستقر به الأيام فى مأمن مريح شأنه شأن كثير من زملائه الشباب الذين شدّهم العمل الوطنى واستغراقهم فيه عن التفكير فى أى شيء آخر.

وخطر له مرة أن يستدعى أمه لزيارته مع السائحين الذين يفدون إلى سيناء ليومين أو ثلاثة؛ ليزيل عنها الوحشة والكآبة التى تعيشها، وَتشاهد المناظر الرائعة الخلابة التى ميز الله بها سيناء والجبال المختلفة الألوان التى أبدعتها قدرة الخالق.. والمياه الصافية بأمواجها الهادئة الناعمة التى تداعب الشاطئ وتغازله فى دلال.. وكأنها تذكّر أبناء مصر بجمالها الفتان، وتغريهم بالقرب منها فلا يتركونها تعانى الإهمال كحسناء جميلة تَغافل عنها العشاق والمحبون.

ولكن أحمد صرف عنه هذا الخاطر بسرعة؛ فقد يجدد المجيء جراحها القديمة والحديثة ويثير فيها الشجون ولا يصرف عنها الأحزان . واكتفى بزيارتها بين الحين والحين كلما أتيحت له فرصة لرؤيتها والاطمئنان عليها.

وانتدبت هيئة القناة جابراً للعمل مرشداً فى الإسماعيلية واستقر به المقام بها.. وكلما عبر القناة مع السفن الغادية أو الرائحة يختلس ساعات لرؤية أمه وشقيقته، وهى ساعات قليلة لأن العمل فى القناة بعد العدوان ازدادت كثافته ولابد أن يتحمل هذا الجيل الناشئ من المرشدين العبء الأكبر ويثبتون مقدرتهم وكفاءتهم.. فلا زالت الدولة المستعمرة تتربص وتنتظر سانحة للخطأ والتقصير حتى تبرر معاودة عدوانها مرة أخرى.. وألقى هذا الإحساس تبعات ثقالاً على المرشدين لأنه تحدٍّ فى مواجهة عدو شرس، ولا بد من النجاح فى هذا الاختبار الأليم الذى يعوزنا فيه كثير من عوامل النجاح والتفوق. ولكن مع الصبر

والمثابرة سيوفقنا الله ويحقق لنا ما نريد.

وكلما التقى جابر بأمه أعطاها من حبه وحنانه ما يعوضها حزنها وآلامها.. إنه يحس بما تعانيه من جراح نازفة لا تريد أن تلتئم.. فلم يترك لها الزمن راحة السلو والنسيان بعد فقد زوجها. وكأنما أراد القدر أن يبتليها مرة أخرى ليختبر فيه قوة الإيمان والثبات. فقد طالت غيبة ابنها حسين وراحت تسأل عنه فى كل مكان.. فلم تقف له على أثر.. وتضافر معها أبناؤها جميعًا وأقاربها فى البحث عنه وباءت كل جهودهم بالفشل.. وعاودتها ذكرى غياب زوجها من قبل. فكلاهما ذهب إلى ساحة لم يعد منها، وهى ترى بين حسين وأبيه تقاربًا كبيرًا فى السلوك والتصرف، وقد تكون النهاية بينهما شبيهة أيضًا وهذا ما تحس به.. وصهرتها الأحزان القاسية فأحالتها شبحًا أضناه الألم يدب على الأرض.. ولم تعد كلمات العزاء تترك فى قلبها أثرًا يخفف بعض ما تجد.. حتى حينما جاءتها رسالة من القوات المسلحة بعد فترة طويلة تخبرها باستشهاد حسين قرأت الرسالة بعيون جامدة نزفت كل ما فيها من دموع.. وكأنها تقرأ الرسالة التى جاءتها من قبل بخبر استشهاد زوجها.. ووضعتهما معًا فى مكان أمين ليكونا شاهدين عند لقائها ربها وكفى بهما من شهيدين.

وأقبل جابر فى زيارة سريعة لأمه فوجدها تجلس وصورة حسين أمامها تناجيها وتتحدث إليها كما اعتادت أن تتحدث إليه من قبل فى حياته، فهو الابن الأكبر الذى طالما بثته شكواها وحمل معها أعباء الحياة ومعاناتها فى رحلتها القاسية.

أخذ جابر يحدثها أحاديث شتى ليخرجها من هذا الإطار الحزين الذى قيدت نفسها فيه.

فقال لها فى صوت يملؤه الفخر والاعتزاز: لا يحزنك رحيل حسين يا أمى.. فهو بطل ضحى بنفسه فى سبيل الوطن وانضم إلى قوات المقاومة فى بورسعيد.. واستشهد بعد أن ضرب أروع مثل فى البطولة والفداء.. إننى زرت مدينة بورسعيد لأعرف مكان استشهاد أخى حسين، وهناك سمعت ألوانًا من البطولات سيسجلها التاريخ بمداد من النور لتكون درسًا من دروس الوطنية فى البطولة والفداء.

بالأمس كنت أسمع يا أمى كلمات جميلة تنساب عبر الأثير فى نغم يشجى عن عيون مهران.. أبكتنى الكلمات وملأتنى فخرًا.. إنها تصور ملحمة رائعة البطولة فذة شارك أخى حسين مع مهران وغيره فى صنعها.

اسمعى يا أمى بعض هذه الأناشيد الحلوة التى يرويها أبناء بورسعيد عن الصمود والتحدى عسى أن تجدى فيها عزاء وسلوانًا. إن محمد مهران مناضل من أبناء بورسعيد.. عامل بسيط فى مؤسسة متواضعة.. انضم إلى صفوف المقاومة وفجّر أكثر من موقع وقتل كثيرًا من الضباط والجنود.. وتمكنت القوات المعتدية من محاصرته والقبض عليه.. ونقل فى طائرة عسكرية إلى قبرص وطلبوا منه أن يعطيهم معلومات عن أماكن الفدائيين ويلقى حديثًا فى الإذاعة يرحب فيه بوجود القوات الأجنبية فى مصر ليخلّصهم من الحكم العسكرى.. وساوموه على عينيه بعد رفضه كل إغراء مادى.. وقال كلماته الخالدة.. خذوا عينى الاثنتين وفوقهما عشرة ولا أخون وطنى.. ونزعت عيناه فى إحدى المستشفيات.. وأعيد إلى مصر ليعيش فاقد البصر غنى البصيرة، يشعّ نور الوطنية والإيمان فى قلبه، ويصبح قصة حية يراها أبناء بورسعيد ماثلة أمامهم.

وأنت يا أمى زوجة بطل ووالدة بطل . . وسأذهب بكِ مرة إلى بورسعيد لتسمعىَ ما يزيدك إعجابًا بحسين لا حزنًا عليه .

لقد تأكدتُ أن حسينًا كان فى مجموعة أم على . . التى ضُرب بها المثل فى الشجاعة وحسن التصرف وابتكار الطرق المختلفة لضرب العدو فى كل مكان .

فردّت الأم بسرعة وكأنما أثارتها كلمات ابنها : وما قصة أم على؟ فقال أحمد : إنها ممرضة فى عيادة الجراح الكبير الدكتور جلال الزرقانى ، واسمها فتحية الأخرس . . اتفقتْ مع قائد المقاومة الشعبية الرائد مصطفى كمال الصياد أن تأوى الفدائيين فى عيادة الدكتور ومستشفاه الكبير فى وسط المدينة . . واتخذت منها مكانًا لمبيتهم وتجمعهم . . ونجحت فى أن تهرّب لهم الأسلحة من قريتها القابوطى عبر بحيرة المنزلة داخل طاولات الأسماك وبمعرفة الصيادين ، وترسل إلى المستشفى بحجة أنه أطعمة للمرضى . وفى الداخل تعدّ وتهيأ للعمل وتوزع على الفدائيين .

ونجحت أولاً فى تجنيد الكثير من طلاب مدرسة الراعى الصالح التى يديرها الرهبان الأجانب لأنهم بعيدون عن مواطن الشبهة . . ولصغر سنهم .

وشهدت شوارع بورسعيد أطفالاً فى عمر الزهور يبيعون أصابع العسلية التى يحبها الإنجليز ويسلمونها لهم بثمن أو بغير ثمن . . وينصرفون سريعًا . . وحينما يبدأ الجندى فى التهامها تنفجر بين يديه لتمزقه . . إنها حلو محشوة بالمتفجرات . . ونجح هؤلاء الأطفال الصغار فى زعزعة استقرار المحتلين واستحالت حياتهم فزعًا ورعبًا . . فهم لا يأمنون فى شراء ما يأكلون أو يشربون . . كل شيء يقع فى أيديهم يتحول إلى نار تشويهم وتمزقهم ، حتى الماء الذى يروى ظمأهم صار سمًا زعافًا جعل البقاء فى المدينة يضيق بهم . .

وتأكدوا أنه لا ملجأ لهم من هذا العذاب إلا بالرحيل.

ولم تنس مدينة بورسعيد تلك الليلة التى هاجم فيها فيصل من القوات المعتدية مستشفى الدكتور جلال بعد أن حامت الشبهات حولها نتيجة خيانة أو تجسس . وأحس رجال المقاومة بالخطر وتأهبوا لصد العدو. . وهنا يشع ذكاء أم على وحسن تصرفها فتجمع منهم الأسلحة سريعًا وتخفيها فى مكان آمن وتأمرهم بالنوم على أسرّة المرضى. . فينامون والأغطية البيضاء تدارى معظم أجسادهم وآهات الألم المصطنعة تبعث من أفواههم. . ومن حجرة مجاورة تنبعث صرهات عالية متشنجة تعلن وفاة أحد المرضى. . وتسرع أم على ومعها الممرضات الوطنيات إلى مصدر الصوت ويقفون أمام الجنود الغزاة صائحين فى وجوههم بشجاعة وبسالة: اخرجوا سريعًا لقد مات أحد المرضى فزعًا من منظركم. . لم يستطع قلبه الضعيف احتمال الصدمة لوجودكم فمات. . دعونا وانصرفوا حتى ندبر أمر دفنه.

وانطلت الحيلة على أفراد العدو وهموا بالانصراف. . وقبل مغادرتهم المكان وجدوها فرصة سانحة ليحملوا معهم كل ما يمكن حمله من الأطعمة الموجودة داخل المستشفى حتى الماء المعبأ فى قوارير أو غيرها أخذوه ليشربوا مطمئنين دون خوف من وجود سُـمّ فيه. وكانت المقاومة وكذلك بعض المرضى الحقيقيين فى حاجة ملحّة إلى الأطعمة التى اغتصبت لأن المخزون منها سواء فى المحلات أو البيوت أو مخازن الجمرك نفد تمامًا تحت ضغط الحصار والنهب. . وبات كثير من الناس لا يجدون ما يقتاتون به. . ولم يُقعدهم هذا عن المقاومة فالغذاء شحيح والمدارس مغلقة وجثث الشهداء تملأ الشوارع مهددة المدينة بالأوبئة والأمراض. . والهدف الوحيد الذى يتكاتفون من أجله هو إخراج العدو وإجلاؤه من أرضهم.

ونجحت أم على فى خديعة المعتدين وكانت سببًا فى عودتهم من حيث أتوا. . وبعد انصرافهم بوقت قصير هَبّ المرضى من أسرّتهم، وبُعث الموتى من رقادهم، واستحال الصراخ والأنين إلى همسات باسمة ساخرة يقف خلفها العزم والصمود، وعادت الأسلحة المخبأة إلى أيدى الرجال تستعد لأداء دورها من جديد.

وقبل أذان الفجر بقليل سمعوا ضوضاء فى أحد الشوارع القريبة من المستشفى فنزل بعض أفراد المقاومة ومعهم حسين ليتبينوا حقيقة ما يجرى، فشاهدوا على البعد وقرب مطار الجميل أفرادًا من المقاتلين يرفعون الأعلام المصرية والروسية ويرتدون أزياء تشبه ما يرتديه المصريون. . وتقدمت بعض الجماهير نحوهم تحييهم وتنضم إليهم؛ لثقتهم بأنهم مقاتلون قدموا لمساعدتهم والوقوف بجوارهم. . وارتاب حسين ومَن معه فى الأمر؛ فليس من التخطيط العسكرى السليم أن يأتى المناضلون الوطنيون على مرأى ومسمع من الجميع بحيث يراهم العدو ويتمكن من القضاء عليهم بسهولة حيث يضعون أنفسهم فى متناول يديه. . لقد أتى ومعه زملاؤه فى خفية وكتمان وتحت مسميات وحرف مختلفة. . وتمكنوا من دخول بورسعيد من منافذ خفية لا يعرفها غير أبنائها. . فكيف يُقبل هؤلاء المناضلون فى وضوح وإعلان عن أنفسهم كأنهم قادمون من معركة ظافرة أبلوا فيها أعظم البلاء وحققوا النصر الذى قاتلوا من أجله.

وقبل أن يفيق حسين وزملاؤه. . سمعوا أصوات الرصاص تدوى من كل جانب فيتساقط الشهداء فى غفلة من أمرهم، والدماء البريئة من الأطفال والنساء والشيوخ تملأ أرض الشوارع.

ووضحت الحقيقة. . فلم تكن الأعلام المصرية أو الروسية سوى خديعة

زائفة وقناعًا كاذبًا اتخذه العدو وسيلة للمرور وسط المدينة؛ ليشدوا انتباه أكبر عدد من المواطنين، وينتقموا منهم هذا الانتقام المروع.

وتقدم حسين وزملاؤه نحو المعتدين وفتحوا عليهم النيران ليردوهم على أعقابهم وينقذوا الأبرياء من بطشهم وفتكهم.. ودارت بين القوتين معركة شرسة انتقلت من شارع محمد على إلى شارع عبادى.. لم تضعف فيها قناة المقاومة على الرغم من عدم تكافؤ القوتين.. فالعدو قادم مستعد يحمل معه أحدث الأسلحة الفتاكة، ورجال المقاومة لا يملكون غير أسلحة خفيفة أكثرها قديم عفٍ عليه الزمن.

ولم يحترم العدو قداسة الدين وجلال العبادة واقتحموا المسجد الكبير الذى تجمع فيه المسلمون لصلاة الفجر وغطت أصوات القنابل اليدوية ودوى الرصاص على أنغام الأذان الشجية التى تنساب فى هدأة الليل تدعو الناس للصلاة والفلاح والحب والتسامح والتجمع على الخير والخضوع لله الذى تتضاءل كل قوة أمام قوته.. واختلطت مسابح المصلين بأشلاء القتلة، ومياه الوضوء بدماء الجرحى، ورائحة البارود بأريج المسك وأعواد البخور التى تنتشر من جنبات المسجد.. وسكتت الألسنة التى تدعو الله فى هدأة الليل وتحولت إلى دموع ونحيب يشكوان ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

وامتلأ المسجد بجثث القتلى بحجة البحث عن الفدائيين وأفراد المقاومة الشعبية.. وكان حسين يقف مع زملائه خارج المسجد يقضون على كل أجنبى غادر يخرج من المسجد.. فلم تقبل عقيدتهم القوية أن تدور المعركة داخل المسجد ويتحول أديمه الطاهر إلى ساحة يُقتل فيها الأبرياء وتنتهك الحرمات.. وقدمت قوة إنجليزية من خلف المسجد لتساعد المهاجمين داخله.. وفى ظلمة

الليل انطلقت رصاصات غادرة على ظهور المناضلين، وفى غفلة منهم استشهد بعدها حسين وبعض زملائه.

وكان التأثر قد بلغ بأحمد مبلغه فسكت قليلاً يستردّ أنفاسه اللاهثة وخواطره المضطربة.. ونظر إلى أمه نظرة يملؤها الحب والإشفاق.. فكلاهما تظنه عائدا من معركة أو مشاهداً المعركة.. فأحاسيسها ومشاعرها امتزج فيها الماضى بالحاضر والسلام بالحرب والموت بالحياة.

وخفضت الأم رأسها مرة إلى الأرض ورفعتها مرات إلى السماء.. ربما تبحث بخيالها الشارد عن مثواه ومثوى أبيه فى الأرض، أو تطلب لهما الرحمة والسكينة فى دعوات صامتة تنبعث من قلبها نحو السماء.

ولم يترك أحمد الفرصة لأمه أن تستعيد الخيال الجامح الحزين فقال: هذا ما تأكدتُ منه يا أمى بشأن استشهاد حسين . إنه مات فى سبيل الله أولاً ووطنه ودينه ثانيًا.. وعلى أعتاب بيت من بيوت الله مدافعًا عن المصلين داخله.. وصعدت روحه الطاهرة إلى ربها على بساط من نور مع دعاء الفجر، ودعاء الفجر مشهود عند الله. هل رأيت شهيداً يا أمى أعظم من هذا الشهيد؟ إنى لأتمثله الآن فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.. وكفاكِ فخراً كما قلت من قبل أنكِ أم الشهيد وزوجة الشهيد.

وطافت ابتسامة باهتة على شفتى الأم لم يدرك أحمد معناها جيداً وإن أحسّ فيها بالألم والصبر.. وقالت له فى صوت خفيض وهى تغالب دموعًا حبيسة فى مقلتيها تريد أن تنهمر ويمسكها التجلد حتى لا تبدو ضعيفة أو منهارة أمام ابنها فتزيد حزنًا على حزن: كنتُ أودّ أن أعرف مكان قبره حتى أتمكن من زيارته وأطبع على أحجاره قُبلة الأمومة التى طالما طبعتها على جبينه فى طفولته

وصباه . . ولكن يبدو أن هذا الأمل قد ضاع هو الآخر كما ضاع قبر والده من قبل ، وإن كانت الرؤية لا تردّ ذاهبًا وربما تشفى أحيانًا وتريح .

قاطعها أحمد قائلاً : لا يا أمى . . لقد دُفن هؤلاء الشهداء فى مقابر جماعية نظرًا للظروف التى استشهدوا فيها ، وأسماؤهم مدوّنة على شواهد قبورهم ، إلا أن هذه القبور لا تليق بهم كأبطال مناضلين ، والمسئولون يعيدون الآن ترميم هذه المدافن وإحاطتها بأسوار مناسبة تليق بعظمة مَن دُفنوا فيها حتى يظلوا مَثلاً مضيئًا فى الوطنية للأجيال اللاحقة . . ولم أقصّر فى زيارة ضريح حسين وقرأتُ اسمه على الشاهد الذى نصب فوقه ، وقريبًا سوف آخذك لزيارته إن شاء الله .

وقطع عليهما الحديث دخول زينب . . فداعبت أمها بكلمات مرحة وأشاعت جوًّا جديدًا بدّد مظاهر الكآبة التى شعرت بها عند دخولها الشقة . . وصافحت أخاها أحمد حيث لم تشاهده منذ فترة . . وراحت تثرثر معه فيما يعنّ لها من حديث عن مختلف شئونه وأحواله .

ولكنه قال لها : دعك من هذا وحدّثينى عن أخبار العريس المنتظر . . وماذا فعلتما؟ ومتى سيتم الزفاف حتى تكون إجازتى فى يوم فرحك؟ أريده يومًا جميلاً نغسل فيه أحزاننا ونستقبل غدًا مشرقًا يُنسينا الماضى بكل أثقاله وآلامه . . وهنا علت حمرة الخجل وجه زينب وابتسمت وهى تقول : سلْ أمى فعندها الخبر اليقين . . وتركتهما يتحدثان واتجهت إلى المطبخ لتعدّ الطعام .

وردت الأم : لقد زارنى العريس عدة مرات وأنتما تعرفانه جيدًا . . وهو شاب طيب تلتقى فيه عدة صفات حسنة تؤهله ليكون عريسًا ملائمًا لزينب . . واتفقتُ معه على كل شيء وتم تأثيث الشقة بما يليق . . وانتظرتُ حضوركَ

وحضور جابر لنحدد موعد الزفاف. . وسيحضر جابر غداً قبل عودتك إلى عملك ونتفق معًا على الموعد الذى لا يتعارض مع عملكما. . وأرجو أن يكون قريبًا. . فهو يلحّ علىّ فى ذلك.

وانتظم ثلاثتهم على مائدة الطعام يتحدثون عن فرح الغد المنتظر. . وماذا أحضروا. . وماذا سيحضرون ؟ وكيف سيكون شكل الحفل الذى تريده الأم بسيطًا وقوراً لا يُخرجها عن الإطار الحزين الذى تعيش فيه. . ويأبى أحمد وتشاركه زينب فى هدوء لا يُغضب أمها. . إلا أن يكون حفلاً جميلاً يتخطى بهم مراحل الأحزان، ويعيدهم إلى ذكريات السعادة ويحملهم على أجنحة من الأمل والتفاؤل إلى عالم جديد سعيد.

obeikandl.com